مُعارضة ابن عبد ربّه لشُعراء المشرق

Ibn Abed Rabbo's Opposition to the Poets of the Orient

الباحثة: فدوى ذباح

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة (الجزائر)

debbahfedoua@yahoo.com

تاريخ الإرسال: 2021/05/01 **تاريخ القبول: 2021/05/22**

ملخّص:

تعدّ المعارضات الشعرية ظاهرة فنية تعكس تبلور التأثر بالتراث المشرقي الذي ارتبط به شعراء الأندلس ارتباطا عميقا، فأفادوا منه واستلهموه في نصوصهم مع المحافظة على خصوصية الشخصية الأندلسية في أدق مظاهرها، وتقدّم هذه المقالة محاولة في قراءة بعض المعارضات الشعرية لابن عبد ربه في كتابه العقد الفريد، إذ تأثر ببعض شعراء المشرق القدماء والمحدثين، كأبي تمام زعيم مذهب التجديد في العصر العباسي، وبحث أسباب وجود هذا الفن في القرن الثالث الهجري ونتائجه والوقوف على بعض جمالياته وسمات شعريته وجوانب الاختلاف عن النموذج الأصلي مع تحديد ببعض ملامح الاتباع والإبداع في المعارضات الأندلسية الشعرية، باعتماد آليات وتقنيات فنية حققت تميزا وتفردا للشاعر ابن عبد ربه الأندلسي.

الكلمات المفتاحية: ابن عبد ربه، الأندلس، المعارضة، المشرق، الموازنة، الإبداع.

***Abstract*:**

Poetic opposition is considered as an artistic phenomenon that reflects the crystallization of influence of the Oriental heritage, to which the poets of Andalusia were deeply associated, so they learned from it and were inspired by this heritage in their texts while preserving the peculiarity of Andalusian personality in its most accurate manifestations. This article presents an attempt to read some of the literary oppositions of Ibn Abed Rabbo which are mentioned in his book "Al-Farid", and who was influenced by some of the ancient

and modern poets of the orient, such as Abi-Tamam, the leader of the doctrine of renewal in the Abbasid period, and he discussed the reasons for the existence of this art in the third century AH and its results and to identify some of the aesthetics and characteristics of poetry and aspects of the difference from the original model with some features of the follow-up and creativity in the Andalusian poetry oppositions,through the adoption of mechanisms and techniques which have achieved excellence and uniqueness of the Andalusian poet Ibn Abed Rabbo.

***Keywords*:** Ibn Abed Rabbo, Andalusia, opposition, Orient, balance, Creativity.

إنّ المتأمّل في التّراث الشّعري الأندلسي يجد غزارة في الكم وتنوعا في فنون القول والعديد من الموضوعات الشعرية التي تؤكد أنّ الثقافة الأندلسية كانت امتدادا متميزا لنظيرتها المشرقية، فلطالما انعكست ظلال التقدّم الحضاري الذي أحرزه المشرق العربي بوضوح على الثقافة العامة في بلاد الأندلس، وتبين أثر الشخصية المشرقية وبرزت ملامحها في المجتمع الأندلسي خصوصا في مجال الإبداع الأدبي، وارتبط الشعراء في الأندلس ارتباطا عميقا بتراثهم وحاولوا الإفادة منه بما يخدم تجاربهم الشعرية ويؤصلها، فاحتفوا به واستلهموه في نصوصهم واطّلعوا على أصوله وروافده وجعلوه حاضرا في أشعارهم، وظهرت ملامحه في شعرهم بشكل كبير بعد أن نال إعجابهم وتمثلوه كمثل أعلى ونموذج رفيع تفرعوا عنه، مع المحافظة على خصوصية الشخصية الأندلسية في أدق مظاهرها وجزئياتها.

وعلى الرغم من تقيّد الشاعر الأندلسي بالإطار الشعري المشرقي والمنهج الاتباعي الذي ظلّل إبداعه الشعري إلا أنّه حاول التوفيق بين ذاته وعصره، وخرج عن التقليد التام للشعر المشرقي وإن سار على طريقه متأثرا به تأثرا انتقائيا وبرزت فيه روح البراعة الفنية الأندلسية وملامح الإبداع المتميز لا سيما في أوائل القرن الثالث الهجري، علما بأنّ الاتباع والتقليد كان مرتبطا بالشكل والموضوع دون المضمون، وبمنهج القصيدة ولغتها وموسيقاها لا بمعانيها وصورها التي كانت وليدة الطبيعة الأندلسية وخصوصيتها المتميزة[1] وتتبلور ظاهرة التأثر بالتراث المشرقي في ظواهر فنية عديدة منها المعارضات الشعرية لكبار شعراء

المشرق وفطاحلهم أمثال أبي نواس(ت 199 هـ) ومسلم بن الوليد(ت 208 هـ) وأبي العتاهية (ت 211 هـ) وأبي تمام(ت 231 هـ) والمتنبي(ت 354 هـ)،فما مفهوم المعارضة الأندلسية؟ وما هي دواعيها في الأندلس؟

- **المعارضة لغة واصطلاحا:**

أضاء أبو الفضل جمال الدين بن منظور(ت 711 هـ) معنى المعارضة اللغوي بقوله: "معارضة الشيء بالشيء معارضة، قابله، وعارضت كتابي بكتابه أي قابلته، وفلان يعارضني أي يباريني. وفي الحديث "إنّ جبريل عليه السلام، كان يعارضه القرآن في كلّ سنة مرة، وإنّه عارضه العام مرتين"، قال ابن الأثير: "أي كان يدارسه جميع ما نزل من القرآن، من المعارضة المقابلة"[2] وهكذا يدل المعنى اللغوي للمعارضة على المجاراة والمحاكاة والمباراة والمقابلة بين الكتب، ووردت مادة (عرض) بالعين والراء والضاد في معجم مقاييس اللغة كبناء تكثر فروعه، وهي مع كثرتها ترجع إلى أصل واحد، وهو العرض الذي يخالف الطول[3]، "وتقول: عارضت فلانا في السير إذا سرت حياله، وعارضته مثل ما صنع، إذا أتيت إليه مثل ما أتى إليك.ومنه اشتقت المعارضة. وهذا هو القياس، كأن عرض الشيء الذي يفعله مثل عرض الشيء الذي أتاه...وعارضت فلانا في الطريق، وعارضته بالكتاب واعترضت أعطي من أقبل وأدبر. وهذا هو القياس"[4].

والمعارضة الشعرية اصطلاحا قصيدة أو مقطعة يحاكي بها صاحبها سابقاتها اللامعات مضمونا ووزنا وقافية "وهكذا تقتضي (المعارضة) وجود نموذج فني ماثل أمام الشاعر المعارض ليقتدي به ويحاكيه أو يحاول تجاوزه"[5].

- **المعارضة الأندلسيّة بين التّأسيس والتّأصيل:**

ولقد شكّل الموروث الشعري المشرقي قاعدة أساسية للانطلاق في المعارضة الأندلسية إثر الانبهار بالشعر المشرقي ومعماره الفني الذي ظلّ يمارس سلطته وتأثيره على الأندلسيين وابن عبد ربه (246 هـ - 328 هـ) – في تقديري – هو أوّل أندلسي صرّح بالمعارضة الشعرية بمعناها الاصطلاحي في كتابه العقد الفريد وأورد مثالا عليها عندما عارض صريع الغواني

مسلم بن الوليد (ت 208 هـ)[6]، فكانت المعارضة الشعرية لقاء شعريا وحوارا فنيا بين شاعرين جمعتهما حالة شعورية واحدة في طرق موضوع مشترك بينهما لإثبات التفوق الفني وتأكيد الانتماء للتراث الشعري العربي، ويمكن القول: إن ابن عبد ربه قدّم القراءة "الجديدة للموضوع المشترك أو المتقارب، وإذا دققنا ذلك قلنا إنها قراءة جديدة في كتابة جديدة"[7] وسرعان ما كان الانبهار بالنموذج المشرقي يتحول إلى عملية مبارزة فنية يحاول فيها الشاعر اللاحق تجاوز القديم والتفوق عليه، علما بأنّ المعارضات الحقيقية بدأت في الشعر الأندلسي عندما شعر الأندلسيون أنهم دون المشارقة تمكنا وعلما فأخذوا ينتقلون بالمعارضة من مستوى المحاكاة إلى مستوى التجاوز والإبداع متحدّين ومنافسين للشعراء الكبار مدافعين عن أندلسيتهم التي كثيرا ما اتهمت بالعجز والقصور، ولعلّ أبرز مثال على ذلك تحدي أبي بكر يحي بن هذيل (ت 389 هـ) بشعر قاله على البديهة قول القائلين عند إنشاد قطعة لبعض أهل المشرق بحضور ملوك الأندلس "هذا ما لا يقدر أندلسي على مثله"[8].

إنّ ملامح روح التفوق وإبداع الذات الأندلسية – حسب اعتقادي – قد اشرقت في عصر متقدم لإثبات البراعة والوجود الأندلسي ولا سيما عند ابن عبد ربه القرطبي صاحب العقد الفريد الذي حاول الانتصار لأندلسيته منبها من خلال المعارضة الشعرية لفحول شعراء المشرق وإلى الطاقات الفنية والقدرات الإبداعية للأندلسيين، فأهل الأندلس "– مذ كانوا – رؤساء خطابة، ورؤوس شعر وكتابة، تدفقوا فأنسوا البحور وأشرقوا فباروا الشموس والبدور، وذهب كلامهم بين رقة الهواء، وجزالة الصخرة الصماء"[9].

ومن الدواعي الخاصة أيضا لإنشاء فن المعارضات الشعرية في الأندلس إعجاب ملوك الأندلس بقصيدة مشرقية معينة فيتوجهون بالطلب إلى شعرائهم لمعارضتها، فكان لهم الدور المباشر والمؤثر في إذكاء شعلة المعارضة الأندلسية، كما أنّ لذلك بعدا سياسيا إذ يعزز الملك بلاطه بشاعر متميز نسب له التفوق على شعراء ملوك المشرق، وإن دلّ هذا على شيء فهو يدل على أنّ أدب البلاط مناطه تميز وتفرد في خلق العمل الأدبي المناظر لغيره، ولعلّ ولع بعض الأندلسيين بالمعارضة يعدّ باعثا أشد على الإتيان بالأجود فنيا "ومن سمات هذه

المرحلة نزوع الشاعر نحو التجريب داخل مظلة القدوة بحيث يطمح إلى قياس ذاته بذاته من خلال عرض نصه بعد الانتهاء منه على الأصل ليتبين ما قد حصل له من تقدم ودربة"[10].

وبهذا تكون المعارضة الشعرية دليلا على اتساع الثقافة لدى الشاعر لا ضيق الأفق والاعتماد المباشر على الآخرين، ففيها تتبين قوة الشاعر ومقدرته الأدبية ولا تغيب شخصيته عن الحضور المقصود في القصيدة المعارضة، ويبدو أنّ "المعارضة الشعرية تمثل نسقا من أنساق المداخلة بين النصوص وهي مداخلة اختيارية – دون شك – نابعة من إعجاب الشاعر المعارض بالنص محل المعارضة"[11] بل إنها أكثر أشكال التناص وضوحا حين يتناول الشاعر ذات الفكرة وربما أحيانا ذات الألفاظ، وقطعا على الأغلب ذات البحر والروي لإعادة إنتاج نص مقترن بالنص الأصلي عن وعي وقصد ورغبة، وعلى كلٍّ يبقى التناص وظاهرة تداخل النصوص سمة جوهرية في الثقافة العربية عندما تتشكل العوالم الثقافية في ذاكرة الإنسان العربي ممتزجة ومتداخلة في تشابك عجيب ومذهل[12].

- **اتّباع وإبداع:**

إنّ المعارضة الشعرية عند ابن عبد ربه في ضوء نظرية التناص خلاصة لعدد من النصوص امحت الحدود بينها، فهي محملة برماد ثقافي يعيدها إلى نصوص سابقة عليها واستعانة الشاعر الأندلسي بالنصوص الغائبة أو الحاضرة ظاهرة طبيعية بل ضرورية في العملية الإنتاجية لأنّ العمل الأدبي لا ينطلق من الفراغ وبهذا كان نص المعارضة الشعرية يدير حوارا فكريا روحيا مع شعراء المشرق العباسيين المحدثين بوجه خاص، ويمكن القول إنّ الشعرية لا تقف عند ما هو غائب وخفي فحسب، بل تتجاوزه إلى سبر ما هو حاضر وظاهر من بناء النص الأدبي، أي تقف أيضا على جملة المكونات التي تجعل من النص الأدبي نصا شعريا فتمنحه خصوصيته كخطاب متميز ينطوي على سمات جمالية شعرية وبناء عليه فالشعرية غياب وحضور – إن صح القول – ولا يخفى علينا أيضا أنّ الشعرية تهتم بدراسة الخصائص الأدبية التي يختص بها خطاب لغوي معين "وكأنّ الشعرية في هذا السياق الاستعمالي تدلّ على كلّ موضوع جمالي وارف الظلال التخييلية، كثيف الطاقات

الإيحائية من شأنه أن يفجر ينابيع القول الشعري في أعماق الذات الشاعرة، وأن يثير إحساس المتلقي ويطوح بخياله في عوالم مثالية حالمة"[13] أي أنّها تدرس السمات الشعرية والأدبية وتشخص الكيفيات الفنية التي تجعل من خطاب لغوي ما نصا أدبيا مميزا[14].

والملاحظ أنّ الشعرية وظيفة من وظائف اللغة في معارضة الشاعر تقوم على تحريك المشاعر وكثرة الإيحاءات، وتركز على انحراف لغة الشعر عند نظم الكلام لتجسد في النص الشعري شبكة من العلاقات النامية بين مكوناتها وصفاتها ووقوعها في الكلام وتتصل بالإبداع حيث تكون اللغة الجوهر والوسيلة.

ومن أبرز المعارضات الأندلسية معارضات ابن عبد ربه التي ذكرها في كتاب العقد الفريد لتثبت معرفة الشعراء الأندلسيين بآثار إخوانهم المشارقة وتأثرهم بهم تأثرا بالغا، ويمكن القول إنّ ابن عبد ربه وضع حجر الأساس لفن المعارضات في الشعر الأندلسي منذ القرن الثالث الهجري، ليبني على منهجه في المعارضة الشعرية من جاء بعده من الشعراء متخذين طريقته معيارا وقد سار على منهجه الذي ازدهر خصوصا في القرن الخامس الهجري غيره وكأن العقد الفريد قدم نموذجا تطبيقيا للمعارضة الشعرية لينظّر النقاد لها – فيما بعد – على شكل ممنهج ومقنن لا بدّ أن تراعى عند محاولة أي شاعر الدخول في مضمار هذا الفن الأدبي، إذ يقول ابن شهيد (ت 426 ه) في رسالة الجن: "إذا اعتمدت معنى قد سبقك إليه غيرك، فأحسن تركيبه، وأرق حاشيته فاضرب عنه جملة وإن لم يكن بدّ ففي غير العروض التي تقدم إليها ذلك المحسن لتنشط طبيعتك، وتقوى منتك"[15].

ويبلغ عدد المعارضات الشعرية في العقد الفريد حوالي ثمانية وخمسين معارضة شعرية موزعة على معظم مجلدات الكتاب وأبوابه، موردا نماذج عديدة من شعر فحول شعراء المشرق منتقيا أبيات شعرية بعينها لديهم ليعارضها، وكأنه أخذ المنهج والطريقة في معارضاته أمّا النظم والإنشاء فهو من صنعه ويحمل بصمته الخاصة حتى وإن أفاد من مسالك غيره وفي ذلك دلالة على إعجابه بصاحب النص الأصلي ورغبة في إبراز مقدرته الشعرية من جهة أخرى، وصاحب العقد ليس بدعا من الشعراء، فقد حافظ على سمات الشعر العربي

القديم منه عموما والمحدث بوجه خاص، وأضاف إليه بعض إبداعه الشخصي، متمثلا قصائدهم من باب التقدير والاحترام والإعجاب، لكن احتفاءه بقصائد الشعراء السابقين لم يكن لمجرد الاستشهاد والذكر بل عارض معانيهم الشعرية وصورهم الفنية بعدما تغلبت ثقافته على دقائق شعره إذ يقول إحسان عباس: "غير أنّ من تدبر تأثير ثقافته وجد روحها متغلغلة في شعره متدخلة في كيانه"[16].

ويتضح من قراءة المعارضات الشعرية لابن عبد ربه في العقد الفريد تحرر الشاعر الأندلسي من سلطة النموذج المحتذى وقيوده الشكلية بحرا ورويا وقافية وما يتصل بالإيقاع الخارجي، بالإضافة إلى الاختلاف مع النص المعارض في جزئيات المعاني والصور رغبة في تحقيق التميز والتفرد، فكانت معارضاته الشعرية تستند إلى قدراته التعبيرية وفنياته الخاصة أشبه بالقراءة النقدية الجديدة للنموذج الشعري الأصلي ولكنها وفق رؤية أندلسية محضة وكان مآلها غالبا مآل ارتقاء وتحرر لا تفوق بالضرورة، وإن تفوق أحيانا اعتمادا على استراتيجية التجديد في جزئيات المعاني والصور الشعرية، واللافت للنظر تعليقات ابن عبد ربه أثناء تقديمه وانتقائه للنصوص المشرقية المعارَضة مما يؤكد ميله إليهم ولاتجاههم الأدبي من جهة، كما تبدو ملامح أخرى للمعارضة الشعرية في العقد الفريد موزعة في شعره بعضها بارز وواضح والآخر خفي باهت يمثله بعض شعراء العصر الجاهلي والإسلامي والأموي وأمّا المعارضات المصرح بها بشكل أكثر فيمثلها شعراء العصر العباسي المحدثين، ويمكن القول هنا أنّ هذا الفعل الإبداعي في العقد الفريد يتنازعه نوعان من النصوص: نصوص ذات حضور قوي أو هي بالأحرى نصوص مركزية في إنشاء معارضاته الشعرية ونصوص ذات حضور خافت وضعيف يمكن أن نطلق عليها إن صح القول نصوصا هامشية[17] فشاعرية صاحب العقد تداني وتقارب شاعرية الشعراء الأفذاذ إذ يقول:

هُـنـَـا تَـفْـنى قَـوَافـي الشّـعـر في هَـذا الـرَّوي
قـوافٍ أُلْبسَـتْ حليًا مِنَ الحُسْنِ البَـديّ
تَـعَالتْ عنْ جَـريرٍ، بَـلْ زُهَيـرٍ، بَـلْ عَـديّ[18]

فالمثل الأعلى الأول عند ابن عبد ربه هو الشاعر الجاهلي كعدي بن زيد وزهير

بن أبي سلمى ومن حذا حذوهما مثل جرير وغيره، فهم الأنموذج الأمثل لديه رغم أنّ نمط حياته لا يتماشى مع نمط حياتهم، وبعد أن تمثل ابن عبد ربه العديد من النماذج الشعرية المنتقاة في ذهنه وصهرها أخذ ينظم معارضاته الشعرية مباشرة، ولعلّ أحسنها تلك التي جاءت في وصف الحرب والصبر على أهوالها وعلّق عليها قائلا: "وقد وصفنا الحرب بتشبيه عجيب لم يتقدم عليه، ومعنى بديع لا نظير له، فمن ذلك قولنا": (من الطويل)

وَجَيْشٍ كَظَهرِ اليَمِّ تَنْفَحه الصّبَا يَعُـــبُّ عُـبَابًا مِنْ قـنًا وقَنَابِـــلِ
فَتنزِلُ أُولاهُ ولَيْسَ بِنَـــــــازِلٍ وتَرْحَـلُ أُخْـرَاهُ ولَيْـسَ بِرَاحِـــلِ!
ومُعْتَرَكٍ ضَنْكٍ تَعَاطَتْ كُمَاتُــهُ كُؤُوسَ دِمَاءٍ مِنْ كُلى ومَفَاصِـــلِ
يُديرونَهَا رَاحَا منَ الرُّوحِ بَيْنَهُمْ بِبِيـــضٍ رِقَاقٍ أو بِسُمرٍ ذَوَابِـــلِ
وَتُسمِعُهُمْ أمّ المنيَّةِ وَسْطَـــــهَا غِنَاء صَلِيلِ البِيضِ تحْتَ المَناصِلِ[19]

فهي عينة من فرائد شعره مما أطلق عليه: "غرائب من شعري" إذ جعل رحى الحرب وهي دائرة على رؤوس الفرسان أشبه بمجلس لهو وطرب يتعاطى سماره كؤوس دماء بعد إزهاق الأرواح بدل الراح، بما يعكس حالة النشوة والبهجة الجامعة بين المجلسين في وقت واحد مع الفخر بالشجاعة والإقدام، وهي صورة شعرية تعكس خصوصية البيئة الأندلسية التي تزهو بترفها وبذخها وتتغنى بانتصاراتها، ولعلّ شعرية غرابتها تتضح في المفارقة الواضحة المعالم التي بلورت صورة حية لواقعه وبيئته الأندلسية التي عرفت بكثرة الحروب والمعارك من جهة وكثرة اللهو والمجون من جهة أخرى، والتداخل غير المتوقع بين اللوحتين الشعريتين لدى المتلقي، فغدت – في اعتقادي – مخالفة لأفق توقعات القارئ الذي تفاجأ بها، مما حقق شعرية متفردة، وهي بمثابة وثيقة تاريخية يستعان بها للوقوف على مظاهر الحياة الأندلسية الجامعة بين النقيضين في مختلف المجالات تقريبا.

وقدم ابن عبد ربه في كتاب العقد الفريد أمثلة في معارضة "صفة الحسن" في وصف النساء موردا نماذج شعرية لعدي بن زيد قائلا: يصف لون الوجه: (من الخفيف)

حُـمْرَةٌ خَلَطَتْ صُفْرَةً في بَيَاضٍ مِثْلَ مَا حَاكَ حَائِكٌ دِيبَاجَا[20]

وقال ذو الرمة (ت 117 هـ): (من البسيط)

بَيْضَاءُ صَفْرَاءُ قَدْ تَنَازَعَهَا لَوْنَانِ مِنْ فِضَّةٍ وَمِنْ ذَهَبِ[21]

وعارضهما بعد ذلك بقوله: (من البسيط)

بَيْضَاءُ يَحْمَرُّ خَدَّاهَا إِذَا خَجِلَتْ كَمَا جَرى ذَهَبٌ في صَفْحَتَيَ وَرَقِ

وقال أيضا:

مَا إِنْ رَأَيْتُ وَلاَ سَمِعْتُ بِمِثْلِهِ دُرًّا يَعُودُ مِنَ الحَيَاءِ عَقِيقَا[22]

وإذ اكتفى الشاعران عدي وذو الرمة بالمزج اللوني في وصف لون الوجه، الذي شبه تارة بحرير الحائك وتارة أخرى بلوني الفضة والذهب، فإنّ ابن عبد ربه قد ولّد دينامية جديدة في معارضته الشعرية لهما، مستوحيا صورته من الخجل والحياء باعتماده كلمات تنتمي إلى نفس الحقل المعجمي عن طريق الترابط[23] الذي تستدعي فيه الكلمات بعضها ببعض (در عقيق) معتمدا على حركية المعنى وتوليده وتغييره مع الإسهاب فيه عن طريق علاقة المشابهة وتوظيف الأفعال في صوره الشعرية التي حققت انسجاما في نص المعارضة الشعرية وضمنت خصبه وحركته وتطوره بالتحول والانتقال من حال إلى حال، وهكذا عارض بعض جزئيات المعاني باعتماد آليات محددة ابتكر بها معان جديدة لعلها تسلكه في عداد الشعراء المجددين، يضاف إليها رقة ممزوجة بالجزالة والكلام الرشيق والذوق النقي مع أناقة في التفسير والتسويغ والطرافة في التلاعب بالصور والمعاني.

ويستنتج من خلال الاطلاع على نصوص المعارضات الشعرية في العقد الفريد أن تطبيقات الشاعر في العقد ينحاز من خلالها لشعراء العصر العباسي المحدثين الذين احتلوا الصدارة في تواتر عدد المعارضات لهم فضلا عن أنّ أكثر شاعر تردد ذكر شعره بصورة متواصلة هو أبو تمام الذي عارضه بأربعين نموذجا شعريا، كما يعدّ أبو العتاهية من أكثر الشعراء حضورا في العقد بعد أبي تمام بنماذجه الشعرية، ويكاد يسجل وجوده تقريبا في كلّ باب من أبواب المعارضات مما يدلّ على شدة تأثره به على نحو جعله يتمثل نماذجه الشعرية بكثرة تقدر بنحو واحد وثلاثين نموذجا.

وهكذا ظل الشعر المشرقي متألقا في سماء المشرق والمغرب، وبقي أبو تمام وغيره يطبقون الآفاق وتتناهى أشعارهم إلى الأسماع فأحرز شعر المحدثين قبولا في البيئة الأندلسية مشكّلا بؤرة مركزية في المعارضات الشعرية لابن عبد ربه في العقد الفريد وكأنّ الشاعر الأندلسي يتزعم التجديد الشعري في عصره فيقيس نفسه بزعيم آخر للتجديد في العصر العباسي ويترسّم خطاه، لا سيما وأنّ شعر المحدثين أكثر تلاؤما مع حياة الأندلسيين وأكثر موافقة لأذواقهم وأصدق إحساسا في التعبير عن معيشتهم الحضارية التي يحيونها، لذلك عمد صاحب العقد إلى أجمل وأشهر قصائد أبي تمام وعارض أجزاء منها مبتعدا عن الغريب اللفظي ناشدا السهولة والرقة في التعبير بما يتفق وذوقه الأندلسي، فمن كتاب "الزبرجدة في الأجواد والأصفاد" من باب "العطية قبل السؤال" نستدل على ما قيل بهذه المعارضة الشعرية:

قال أبو تمام: (من الطويل)

عَطاؤُكَ لاَ يَفْنىَ ويَسْتَغْرِقُ المنَى وتَبْقَى وُجُوهُ الرَّاغِبِينَ بِمَائِهَا[24]

و قال أبو تمام أيضا: (من البسيط)

ذُل السُّؤَالِ شَجًا في الحَلْقِ مُعْتَرِض مِنْ دُونِهِ شَرَقٌ مِنْ خَلْفِهِ جَرَضُ

مَا مَاءُكَ فَّكَ إِنْ جَادَتْ وإِنْ بَخِلَتْ مِنْ مَاءِ وَجْهِي إِذَا أَفْنَيْتُهُ عِوَضُ

إِنِّي بِأَيْسَرِ مَا أَدْنَيْتَ مُنْ بَسِـــط كَمَا بِأَكْثَرِ مَا أَقْصَيْتَ مُنْقَبِضُ[25]

و من قولنا في هذا المعنى: (من الطويل)

كَرِيمٌ عَلىَ العِلاَّتِ جَزْلٌ عَـطَاؤُهُ يُنِيـلُ وَإِنْ لمَ يُعْتَـــــمَدْ لِنَوَالِ

ومَا الجُودُ مَنْ يُعْطِي إِذَا مَا سَأَلْتَهُ ولَكِنَّ مَنْ يُعْطِي بِغَيْرِ سُؤَالِ[26]

فهي معارضة ذات موضوع اجتماعي يتعلق بالسخاء والجود وإثبات العطية لمستحقيها قبل المطالبة بها بما يحفظ كرامة الإنسان وماء وجهه، ولدى إجراء الموازنة بين النماذج الشعرية تبدو مظاهر الاختلاف الشكلي للإيقاع الخارجي من حيث الوزن والقافية والروي

فابن عبد ربه آثر التحرر والانفلات جزئيا من سلطة النموذج الشعري المحتذى معتمدا في الوقت ذاته من حيث الإيقاع الداخلي على كلمات يتكرر فيها حرف اللام والهمزة،إذ أنّ جوهر الشعرية اللغوية يكون ابتداء بصوت الحرف ومرورا إلى المفردة وانتهاء بالتركيب، كما تتراوح معاني المعارضة بعد الموازنة بين النماذج الشعرية بين المدح المتبوع بالشكوى في النموذج الأول، والعتاب في المقطّعة الثانية لأبي تمام، أما ابن عبد ربه فقد مدح أصالة هذا الرجل المعطاء السخي رغم تبدل ظروفه وشواغل أموره فالجود المثالي لا يتحقق بالنوال بعد السؤال ولكن يكون بالكرم الجزيل قبل الطلب، مفيدا من المعجم الشعري واللغوي لسابقه بما يؤكد وجود روح المعارضة لديه مثل (عطاؤه، جود، السؤال يعطي) وشتان بين الكرم الفطري الأصيل التلقائي والكرم المحقق بعد توجيه الطلب لحدوثه.

وهكذا يمكن القول إن فكرة البذل والجود تمثل القاسم المشترك بين الشاعرين المتعارضين مع الزيادة اللطيفة الذكية لابن عبد ربه في تناول المعنى وتجديده بتطرقه للبذل المثالي التلقائي للممدوح الذي يكون بغير طلب وسؤال وهو الأفضل، فقدّم المعنى بطريقته الخاصة متخففا من كثافة التصوير والصّنعة المعهودين لدى أبي تمام، ولذلك تعدّ الشعرية وظيفة من وظائف اللغة في المعارضة الشعرية تقوم على تحريك المشاعر وكثرة الإيحاءات وبما تتضمنه من عناصر المفاجأة والإثارة لدى السامع وبما تشتمل عليه نصوص المعارضات الشعرية من ظواهر بديعية كالترديد والمطابقة والمماثلة التي تعدّ دعامة أساسية من دعائم الصياغة اللغوية وليست مجرد محسنات لفظية معنوية فقط.

ومن معارضاته الشعرية لأبي تمام أيضا في معنى صحبة الأيام بالموادعة أورد ابن عبدربه قول أبي تمام: (من الوافر)

وَكَانَتْ لَوْعَةً ثُمّ اطْمَأنَّتْ كَذَاكَ لِكُلِّ سَائِلَةٍ قَرَارُ[27]

و قال أبوتمام:

مَاذَا يُرِيكَ الدَّهْرُ مِنْ هَوَانِهِ ازْفِنْ لِقِرْدِ السُّوءِ فِي زَمَانِهِ[28]

و عارضه ابن عبد ربه بقوله: (من الوافر)

تَطَامَنْ للزَّمَـانِ يُجِزْكَ عَـــــفْوًا وإِنْ قَـالُوا، ذَلِيـلٌ، قُلْ ذَلِيـــلُ![29]

ففي هذه المعارضة اتكأ ابن عبد ربه على نموذجين شعريين لأبي تمام يتشكل كلاهما من بيت شعري واحد، معارضا إياهما ببيت شعري واحد أيضا، ولعلّ الأبيات كلّها تدور في فلك الحكمة المتعلقة بكيفية التعامل مع أيام الدهر وما يستجد فيها من أحداث ووقائع بذكاء اجتماعي فائق ومسايرة لأهله ليتحاشى الإنسان ما لا يحمد عقباه حتى يبلغ مراده وغايته بذكاء وصبر وكياسة،و يتضح الاتفاق البيّن بين الشاعرين المتعارضين بحرا ودلالة مع اختلاف في حرف الروي بين الراء عند الطائي واللام عند الأندلسي والإبقاء على الحركة المضمومة فيه، فهي معارضة لم تشذ عن سابقتها جزئية ضمنية تركز على معارضة المعنى أكثر من الشكل.

وحكمة أبي تمام مفادها أنّ حياة الإنسان بين اضطراب واطمئنان، فإذا ألمّ به هم أو اعترضه ألم أو حزن فلا بدّ أن يعقبها اطمئنان وثبات واستقرار، وليقنعنا أكثر ضرب لنا مثالا حسيا واقعيا يتمثل في المكان المنخفض الذي تجتمع فيه سيول الماء بعد حركة وجريان، "وبعض حكم أبي تمام تجري مجرى الأمثال"[30] أما صاحب العقد فيطالعنا بصورة من صور مهادنة ومسالمة الدهر ومجاراة أهله بالطرب لسوئه ونوائبه دفعا للهوان والحزن مستمرا في تأكيد المعنى ذاته ومؤكدا خفض الجانب للزمان وأهله وموافقتهم على ما يرونه ويعتقدونه حتى وإن كان ذلك مجانبا للصدق والواقع لاتقاء شرهم وظلمهم، ولعلّه رأي يعكس رؤية الشاعر وخبرته في الحياة ونظرته لقواعد التعامل مع بشر زمانه الذين لا يؤمن جانبهم، ولعلّ جدلية الحركة والسكون والاضطراب والاطمئنان هي القاسم المشترك بين النموذجين المتعارضين في تناول المعنى، ومن سمات شعرية معارضة ابن عبد ربه بساطة وسلاسة الأفكار كما هو واضح، وكثيرا ما يولّد معان ودلالات جديدة منوعا في أساليبه وعباراته مما يضفي الجمالية على اللغة والعبارة الشعرية بما فيها من تمطيط ومجاز فيحقق الإثارة والمتعة لدى المتلقي ويتحاور مع النص الشعري العباسي من أجل استنطاقه وكشف دلالاته المتولدة أو الجديدة بحسب كفاءته الفنية وعمق تجربته الإبداعية.

وخلاصة القول إن المعارضة الشعرية ظاهرة إبداعية خارجة عن التقليد ولكنها سائرة على طريقه لأنّ الشاعر يصوغ الفكرة صياغة جديدة معتمدا على آليات وتقنيات فنية كالقلب، العكس، التغيير، الإسهاب، التوليد، التركيب، الإضافة والتعديل رغبة في مقاربة السابقين وتحقيق التميز والتفرد، إثباتا لخصوصية الذات الأندلسية التي كثيرا ما سجنت بين قضبان التبعية والتقليد الأعمى لأدب المشارقة وفنهم.

الهوامش والإحالات

(1)– ينظر: شعرية المعارضة عند ابن عبد ربه في العقد الفريد. مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب المغربي والأندلسي. جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية. قسنطينة. 2013–2014.

(2)– لسان العرب. مج 4. تحقيق: الكبير، عبد الله علي و آخرون. د ط. القاهرة: دار المعارف. د ت. باب العين: مادة (ع ر ض)، ص2885.

(3)– ينظر: أحمد بن فارس بن زكريا أبو الحسين. تحقيق: عبد السلام محمد هارون. ج 4. كتاب العين. مادة (عرض) ص 269.

(4)– المصدر نفسه. ص 272.

(5)– عزام، محمد. النص الغائب – تجليات التناص في الشعر العربي – دراسة. د ط. دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب. 2001م. ص142.

(6)– ينظر: العقد الفريد. تحقيق: العريان، محمد سعيد. مج 3. ج 6. ط1. دار الطباعة للنشر والتوزيع. بيروت: 2008 م. ص ص387، 388.

(7)– الطرابلسي، محمد الهادي. "شعر على شعر – معارضات شوقي بمنهجية الأسلوبية المقارنة" مجلة فصول. مج 3. العدد الأول. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب. 1982م. ص89.

(8)– المقري التلمساني. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. ج 3. تحقيق: عباس، إحسان. بيروت: دار صادر. 1988 م. ص ص153، 154.

(9)– الشنتريني، ابن بسام. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. مج1. القسم1. تح: عباس، إحسان. د ط. بيروت: دار الثقافة. 1987 م. ص 14.

(10)– اللبدي، أيمن. الشعرية والشاعرية. ط1. الأردن، فلسطين: دار الشروق للنشر والتوزيع. 2006م. ص 37.

(11)– الشناوي، علي الغريب محمد. المعارضات في الشعر الأندلسي –القصيدة العباسية أنموذجا– ط1. مصر: مكتبة الآداب. 200 م. ص 4.

(12)– ينظر: الغذامي، عبد الله محمد. ثقافة الأسئلة – مقالات في النقد و النظرية. ط2. الكويت: دار سعاد الصباح. 1993م. ص 119.

(13)– وغليسي، يوسف. "تحولات الشعرية في الثقافة النقدية العربية الجديدة". عالم الفكر. العدد3. المجلد 37. الكويت: يناير– مارس. 2009م. ص 12.

(14)– المرجع نفسه. ص 13.

(15)– ابن شهيد، أبو عامر أحمد بن عبد الملك. رسالة التوابع والزوابع. تحقيق: البستاني، بطرس. ط1. بيروت: دار صادر. 1967 م. ص135.

(16)– تاريخ الأدب الأندلسي – عصر سيادة قرطبة – ط2. بيروت: دار الثقافة. 1969م. ص200.

(17)– ينظر: بنيس، محمد "النص الغائب في شعر أحمد شوقي– القراءة و الوعي ".مجلة فصول. الهيئة العامة المصرية للكتاب. العدد1. 1982 م. ص82.

(18)– ابن عبد ربه، شهاب الدين أحمد بن محمد. الديوان. تحقيق: الداية، محمد رضوان. ط1. بيروت: مؤسسة الرسالة. 1979م. ص176.

(19)– ابن عبد ربه. العقد الفريد. مج1. ج1. ص73. و ينظر: الديوان. ص 134.

(20)– المصدر نفسه .مج4. ج7. ص76. و ينظر: العبادي، عدي بن زيد. الديوان. تحقيق: المعيبد محمّد جبّار .دط. بغداد : شركة دار الجمهوريّة للنّشر والطّبع .1965م. ص120.

(21)– المصدر نفسه. مج4. ج7. ص76. وينظر: ذو الرمة، غيلان بن عقبة العدوي. الديوان. تحقيق: عبد القدوس، أبو صالح. بيروت: مؤسسة الإيمان للتوزيع والنشر والطباعة. 1928م. ص33.

(22)– ابن عبد ربّه، شهاب الدّين أحمد بن محمّد. العقد الفريد، مج4. ج7. ص76. وينظر: ديوان ابن عبد ربه. ص 117، ص 120.

(23)– ينظر: مفتاح، محمد. دينامية النص، المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء. 2006 م. ص 113.

(24)– ابن عبد ربه، شهاب الدين أحمد بن محمد. العقد الفريد. مج1. ج1. ص133. وينظر: التبريزي الخطيب. شرح ديوان أبي تمام. ج2. ص 391.

(25)– المصدر نفسه. ص ن و ينظر: التبريزي، الخطيب. شرح ديوان أبي تمام. ج2. ص ن.

(26)– المصدر نفسه. ص ن. وينظر: ديوان ابن عبد ربه. ص135.

(27)– ابن عبد ربه، شهاب الدين أحمد بن محمد. العقد الفريد. مج1. ج2. ص422. وينظر: التبريزي الخطيب. شرح ديوان أبي تمام. ج1. ص 311.

(28)– المصدر نفسه. مج1. ج1. ص ن.

(29)– المصدر نفسه. مج1. ج 2. ص422.

(30)– فروخ، عمر. أبو تمام شاعر الخليفة محمد المعتصم بالله – دراسة تحليلية – د ط. بيروت: المكتب التجاري للطباعة والتوزيع. 1964م . ص139.